النظام المقطعي في اللغة العربية: المفاهيم والأبعاد

خليفة صحراوي
قسم اللغة العربية
جامعة باجي مختار

الملخص:

تضاربت الآراء واختلفت حول أهمية المقطع والدراسة المقطعية في اللغة العربية ، وهل يُتعامل معه على أنه وحدة في اللغة على مستوى التحليل الوظيفي للأصوات، أو ينظر إليه للدلالة على عملية تتابع من الأصوات الكلامية.

فعلى الرغم من أهمية الدراسة الصوتية للغة بمنظور علم الأصوات العام من النواحي النطقية والفيزيائية والسمعية ، إلا أنه لا بد من الاهتمام باللغة في إطار السلسلة الكلامية ، مثل النظام المقطعي ، والنبر ، والتنغيم .

Résumé :

De nombreuses opinions ont été émises autour de l'importance de la syllabe dans la langue arabe : doit-on traiter ce concept comme unité dans la langue –analyse phonologique- ou signifie –t-il une successivité de phonèmes ?

Malgré l'importance de l'étude de la langue d'un point de vue phonétique consacrée aux aspects articulatoires, physiques et auditifs, il est nécessaire d'accentuer l'étude de la langue la chaîne parlée ou verbale en insistant sur le système syllabique, l'accent et l'intonation.

توطئة:

للغة العربية خصائصها وأسسها، وليس معنى ذلك أن اللغات الأخرى تخلو منها، أو أنها تنفرد بها، ولكن المراد أن هذه الأسس تبرز فيها بصورة مميزة، وهي التي تغطي المستويات الصوتية، والصرفية، والنحوية والمعجمية.

لذلك ارتأيت أن أسلط الضوء على خاصية من هذه الخصائص المؤثرة في الحقل التعليمي . وعليه ، ومحاولة للإلمام بكل جوانب الموضوع "**النظام المقطعي في اللغة العربية**"، سأتناول بالدراسة المحاور التالية :

أولا – ماهية المقطع .

ثانيا – إسهام القدامى في الدراسة المقطعية .

ثالثا – معايير بناء النظام المقطعي في اللغة العربية.

رابعا – أنواع النسج في المقاطع العربية

خامسا – خصائص المقطع العربي .

تضاربت الآراء واختلفت حول أهمية المقطع la syllabe والدراسة المقطعية في اللغة العربية ، وهل يُتعامل معه على أنه وحدة في اللغة على مستوى التحليل الوظيفي للأصوات analyse phonologique ، أو ينظر إليه للدلالة على عملية تتابع من الأصوات الكلامية .

فكم دارت من مناقشات حول جدوى هذه الدراسة، وشأنها في الدراسات اللغوية، وخدمتها خاصة للغة للعربية، وكم طرحت من تساؤلات في هذا الإطار ... ووعيا بهذه الإشكالية ، ارتأيت الإسهام بفك بعض خيوط هذا الموضوع من حيث المفاهيم واختلاف اتجاهاتها ، ونظرة علماء اللغة قديما وحديثا لأهمية النسيج المقطعي للغة العربية وفوائده .

إن كلام أي لغة من اللغات ليس مجموعة من الأصوات المفردة ، فنحن لا نتكلم أصواتا كل منها قائم "برأسه" ، فنحن نتكلم كلمات وجملا وفقرات [1] .

ليس النظام الصوتي système phonologique تلك الصوامت والصوائت فحسب ، بل إن هناك ظواهر مصاحبة لا بد من تعلمها والتدرب عليها ؛ فأي إنسان يريد أن يتعلم كيف ينطق لغة أجنبية لا بد أن يكتسب أولا القدرة على أداء العادات النطقية الجديدة ، ولا بد أن يتعلم كل النظام النطقي بما في ذلك النبر l'accent والتنغيم l'intonation ... الخ [2].

فعلى الرغم من أهمية الدراسة الصوتية للغة بمنظور علم الأصوات العام la phonétique ، من النواحي النطقية والفيزيائية والسمعية ، إلا أنه لا بد من الاهتمام باللغة في إطار السلسلة الكلامية ، مثل النظام المقطعي ، والنبر والتنغيم .

أولا – ماهية المقطع :

هناك اتجاهان رئيسيان في تعريف المقطع ، اتجاه صوتي واتجاه وظيفي صوتي .

أما **الاتجاه الأول**، فإن مصطلح المقطع يستعمل عادة للدلالة على عملية تتابع الأصوات الكلامية، هذا التتابع له حد أعلى أو قمة إسماع طبيعية sonorité maximale (بغض النظر عن العوامل الأخرى مثل النبر والتنغيم الصوتي)..

وأما الاتجاه الثاني ، فمستعمل بصفة أوسع في مجال اللسانيات العامة على مستوى التحليل الوظيفي للأصوات ، ويحدد المقطع على أنه **وحدة في اللغة** يحتوي على عدد محدد من الصوامت والصوائت المختلفة [3] .

ومن اللغويين من ركز أكثر على الناحية الفسيولوجية ، فعرف المقطع على أنه **نبضة صدرية** ، حيث إن تقدم الوسائل العلمية واستخدام الأجهزة الحديثة لتسجيل الكلام، وتسجيل حركات العضلات ، ومواضع الضغط بين الأعضاء ؛ كل هذا جعل تحديد النبضة الصدرية لكل مقطع ممكنا ، ومعرفة الدور الذي يؤديه هذا التحرك الأساسي لتوزيع الأدوار على مكونات المقطع ، كما عرف المقطع على أنه وحدة unité منفردة لتحرك هواء الرئتين لا تتضمن أكثر من قمة كلامية [4] .

وقد عرّف جان كانتينو Jean Cantineau المقطع بقوله :« إن إصدار جملة من الجمل أو لفظا من الألفاظ هو عبارة عن إصدار سلسلة متتابعة من الأصوات يتطلب النطق بها القيام بطائفة من عمليات الانفتاح والانغلاق في جهاز التصويت appareil phonatoire، وأن الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز التصويت (سواء أكان الغلق كاملا أو جزئيا) هي التي تمثل المقطع » [5] .

ثانيا – إسهام القدامى في الدراسة المقطعية :

من الغريب أنه اطرد لدى الدارسين عموما أن العرب لم يعرفوا المقطع بمفهوم syllabe ، وهو حكم يكاد يصبح مقررا لدى كل الناظرين في علم الأصوات كما عرفه

العرب وبلوروه ، وإذا كان في ملابسة مصطلح المقطع بمعنى المخرج كما ورد في تعريف ابن يعيش الذي قال:« ... والمخرج هو المقطع الذي ينتهي الصوت عنده...»[6] .

سأذكر– على سبيل المثال ، لا الحصر – بعض الدراسات العربية [7] التي عالجت قضية المقطع . فالإحساس بفكرة المقطع الذي يوافق المصطلح الأجنبي syllabe[8]، باعتباره حجما صوتيا متطابقا مع كم زمني متواتر لدى جلّ الذين نظروا في أمر اللغة ...

فالقاضي عبد الجبار – إذ يتناول قضية جنس الصوت – يتطرق إلى ما يفيد بأن تقطيع الكلام معناه تفصيله إلى مقاطع – بالمعنى الصوتي الفني للعبارة – وعلى هذا المعيار ميّز صاحب المغني بين " التقطيع المتجانس والتقطيع المتخالف " [9].

كما ترد عبارة المقطع على لسان **ابن رشد** عند تمييزه بين « جنس الصوت وجنس الكلام فيفصل بين المقطع الممدود والمقطع المقصور » [10]، وهو تركيز جلي على قضية المدى الزمني الحاضر لفكرة التقطيع .

أما **ابن سينا** ، فإنه ينص بالتصريح والتحديد على فكرة المقطع انطلاقا من تتبعه لأجزاء الحدث الكلامي التي يضبطها في سبعة ، وفي أعلى درجات السلم يذكر ابن سينا المقطع ، ويفرعه إلى ممدود ومقصور ، فينطلق تحديده مع ما تضبطه الأصوات الحديثة من مقاطع قصيرة وأخرى طويلة ، وفي ذلك يقول :« وأما اللفظ والمقالة ، فإن أجزاءه سبعة : المقطع الممدود والمقصور كما علمت » [11] .

وبنفس الدقة والتصريح يتعرض **أبو نصر الفارابي** لقضية المقطع خلال حديثه عن نظرية المحاكاة الطبيعية في أصل الظاهرة اللسانية ، ومعلوم أن القول بالمحاكاة قد انطلق من الثبت المعجمي في اللغة بالبحث عما تحكيه بنية اللفظة من واقع الدلالة التي تقترن بها ، على أن هذه المحاكاة قد تتماثل كلية بين اللفظة ومعناها ، وقد يقتصر التماثل على بعض أجزاء الكلمة وهي المقاطع ، يقول الفارابي : « وربما لم تكن اللفظة بأسرها محاكية ، ولكن ببعض أجزائها مثل زنبور وطنبور ، فإن المقطع الأول من زنبور يحاكي زميمه إذا طار ، وطنبور يحاكي الجزء الأول من هذه اللفظة صوت الآلة .. » [12] .

وتكتمل فكرة المقطع من حيث تصوره المبدئي وتصويره الوصفي عند **ابن رشد**، وهو يزاوج في التعبير عن مفهومه بمصطلحين مترافقين هما لفظ المقطع نفسه من جهة ،

ولفظ "**السلابي**" من جهة أخرى ، وهو يحدد أن المقطع يحدث عند اجتماع الحرف المصوت ، وغير المصوت .

ويتعمق **ابن رشد** في قضية المقطع ، ويأتي إلى إشكالية المقطع من باب ضبط هويته بالنسبة إلى تركيب أجزائه الصوتية في تحققها على محور الإنجاز الزمني ، وأبرز ما يستخلصه من هذا الاستقراء أن المقطع **كل لا يتجزأ** من حيث هو وحدة متناسقة ، معنى ذلك أن مفهوم الوحدة l'unité فيه مفهوم كلي ، وهذا مؤداه أن المقطع حتى لو أمكن فصله تحليلا إلى الأجزاء المركبة له ، فإنه في ذاته ظاهرة ذات هوية منفردة ، لأنه كالكائن الحي ليست هويته مجرد حصيلة أجزائه ، وإنما هو في حقيقة أمره حاصل مجموع العناصر المركبة له ، مع شيء آخر [13] .

ثالثا – معايير بناء النظام المقطعي في اللغة العربية:

إن المعايير التي تبنى عليها المقاطع في اللغة العربية، تكمن في النظر إلى المقطع من زاويتين:

أ – من حيث موضع الصائت la voyelle:

إذا كان المقطع ينتهي بصائت قصير أو طويل يسمى بالمقطع المتحرك أو المفتوح ، مثل – فَ – يا – بي ... أما إذا انتهى بصامت فيسمى المقطع الساكن أو المغلق ، نحو : بابْ – عيدْ بالباء والدال الساكنتين في حالة الوقف , والمقطع المضاعف الإغلاق هو المقطع الذي يتلو فيه الصائتَ صوتان صامتان نحو قُفْلْ (بإسكان الفاء واللام)، بَحْرْ (بإسكان الحاء والراء) ويسمى كذلك مقطع مزدوج الإغلاق .

ب – من حيث القصر والطول:

تنقسم المقاطع من حيث المدى إلى مقاطع قصيرة ومقاطع طويلة [14] ؛ فالمقطع القصير هو الذي ينتهي بصائت قصير مثال ذلك الفعل كَتَبَ في العربية مركب من ثلاثة مقاطع قصيرة (كَ / تَ / بَ).

والمقطع الطويل هو الذي ينتهي بصائت طويل ، مثال ذلك أن المقطع الثالث في كلمة "كَتَبْنَا" مقطع طويل ، وهو "نا" .

رابعا – أنواع النسج في المقاطع العربية :

تتوزع المقاطع في اللغة على الأنسجة التالية ، وهي خمسة أنواع :

1– صامت + صائت قصير ، ويسمى مقطع قصير مفتوح ، مثل : بِ.

2- صامت + صائت طويل ، ويسمى مقطع متوسط مفتوح ، مثل : فِي.

3- صامت + صائت قصير + صامت ويسمى مقطع قصير مغلق ، مثل : عَنْ.

4- صامت + صائت طويل + صامت ويسمى مقطع طويل مغلق ، مثل : عِيدْ.

5- صامت + صائت قصير + صامت + صامت ويسمى مقطع قصير مضاعف الإغلاق، مثل : بَحْرْ [15].

خامسا – خصائص المقطع العربي :

يلاحظ أن الأنواع الثلاثة الأولى شائعة في اللغة العربية كثيرا ، أما الشكل الرابع فقليل ويرى غالبا في نهايات الكلمات ، ووجوده في حشوها نادر جدا، مثل ﴿ مدهامّتان ﴾ [16] (هام)، والضالين (ضال) . أما النوع الخامس ، فلا يرى إلا في نهايات الكلمات عند الوقف بالسكون [17] .

كما يلاحظ في المقطع ما يلي :

1 – يبدأ بصامت واحد فحسب .

2 – يحتوي على صائت ، وكل صائت واحد هو محور لمقطع واحد ، وهذا يعني أن الكلمة العربية لا يمكن أن تبدأ بصائت بخلاف اللغات الأجنبية كالإنجليزية مثلا في كلمة into أو الفرنسية في كلمة image .

3 – لا توجد كلمة عربية تبتدئ بصامتين متجاورين ، وإن كان هذان الصامتان يجتمعان في وسط الكلمة كما في " يَكْتُبُ " ، فقد اجتمعت الكاف ، وهي في نهاية المقطع الأول "يك" مع التاء ، وهي في بداية المقطع الثاني .

ففي بداية الكلمة ، يتحاشى العربي أن ينطق بصامتين متتاليين أو أكثر ، ذلك بأن يأتي بصائت فيقول " اكتب " بدلا من " كْتُبْ " ، وتطبق هذه القاعدة على الكلمات الأجنبية التي تنطق بالعربية ، فالاسم الإغريقي Platon قد أصبح في العربية " أفلاطون"، وحيث وَجَب الإتيان بصامت لبداية المقطع ، فقد اصطلح على أن يكون الهمزة ، كما نلاحظ أن كلمة France المبدوءة بصامتين (F,R) تنطق في العربية فِرَنْسَا ...

زيادة على ما ذكر من مميزات المقطع العربي ... ولما كان ما لا تقبله العربية من أنسجة مقطعية كثيرا ، يضيق المقام عن استيفائه ، سنكتفي بذكر بعض الأمثلة عما لا يقبل

في اللغة العربية ، وإن وجدت كلمات على هذا المنوال ، فهي لا شك أعجمية دخيلة على اللغة العربية .

فما لا تقبله العربية في نسج كلماتها ما يأتي :

أ- كلمة مؤلفة من ثمانية مقاطع أو أكثر .

ب- كلمة في صدرها أو حشوها مقطع من النوع الخامس (مقطع طويل مضاعف الإغلاق).

ج - كلمة مجردة من اللواحق ، مؤلفة من ثلاثة مقاطع من النوع الثاني (مقطع متوسط مفتوح) ، فإن وجدت على هذا المنوال ، فهي لا شك أعجمية مثل "قاديشا" . أما الكلمات ذات اللواحق ، فلا تأبى ثلاثة من هذا النوع ، مثل "باعوها" .

د - كلمة مؤلفة من مقطعين : أولهما من النوع الثاني ، وثانيهما من النوع الخامس ، مثل كلمة "تيهرت" أو "حومرت" ، وهي المستعملة في لهجة حلب : رجل حومرت أي كيّس .

هـ - كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع ، أولها من النوع الثالث (مقطع قصير مغلق) ، والثاني والثالث من النوع الثاني ، مثل سرغايا ، وهي كلمة سريانية مفهومها اسم علم لقرية في سوريا ، إلا أن بعض الكلمات إذا وُقِفَ عليها بالألف بدل التنوين ، عدّت من هذا النسيج وذلك مثل قنطارَا بدلا من قنطارًا [18] .

و - كلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع ، أولها من النوع الثاني وثانيها وثالثها من النوع الثالث، مثل "شابندر" أي نقيب التجار ، وهي كلمة فارسية ...

هذه أمثلة لما لا تقبله اللغة العربية ، وهي في الواقع كثيرة ، وما يلاحظ بصفة عامة أن الكلمة العربية مهما اتصل بها من لواحق suffixes أو سوابق préfixes ، لا يزيد عدد مقاطعها على سبعة، ففي كل من المثالين ﴿ فسيكفيكهمو﴾ [19]، أو ﴿ أنلزمكموها ﴾ [20]، مجموعة مكونة من سبعة مقاطع ، على أن هذا النوع نادر في اللغة العربية ، وإنما الكثرة الغالبة من الكلام العربي يتكون من مجاميع من المقاطع، كل مجموعة لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع. واللغة العربية تميل عادة في مقاطعها إلى المقاطع المغلقة ، وهي التي تنتهي بصامت ...[21] .

ولقد أشار النحاة من القدماء إلى ميل اللغة العربية إلى المقاطع المغلقة، حين قرروا استحالة اجتماع أربعة " متحركات " في كلمة واحدة ، ومعنى قولهم هذا كما عبر عنه المحدثون أن اللسان العربي ينفر من توالي أربعة مقاطع مفتوحة مثل "اسْتَفْهَمْتُمْ " (اسْ/تَفْ/ هَمْ/تُمْ) .

إضافة إلى كل هذا ، فإن الاهتمام بالنظام المقطعي يفيد في ما يلي :

1 – معرفة بنية الكلمة وتحديد الأصول فيها ، وما يطرأ عليها من زوائد صرفية لأغراض دلالية ، مثل : فَعَلَ ، فَعَّلَ ، فَاعَلَ ، تَفَاعَلَ ، اسْتَفْعَلَ ... الخ.

2 – معرفة الأوزان الشعرية .

3 – له دور في القراءات ولا سيما في علم التجويد .

وتأسيسا على ما سبق ، فإن قضية المقطع التي تندرج ضمن الدراسة الفومقطعية étude suprasegmentale ، تحتاج إلى مزيد من الاهتمام ، كي يُتمكن من معالجة بعض مشكلات اللغة العربية ، وخاصة منها بناء نظام صوتي متكامل ...

الهوامش والإحالات:

1 – محمود السعران ، علم اللغة ، طبعة دار المعارف ، الإسكندرية ، 1962 ، ص 205 .

2 – سعد عبد الله الغريبي ، الأصوات العربية وتدريسها ... مكتبة الطالب الجامعي ، الرياض، ط 1 ، 1980 ، ص 55 .

3 – R.H. Robins, linguistique générale : une introduction , librairie Armand Colin, Paris 1973, p. 127.

4 – André Martinet, éléments de linguistique générale, librairie Armand Colin, Paris 1970, p. 59

5 – جان كانتينو ، دروس في علم أصوات العربية ، نقله إلى العربية صالح القرمادي ، الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس 1966 ، ص 191 .

6 – ابن يعيش ، شرح المفصل ، عالم الكتب ، بيروت ، د.ت .

7 – للمزيد من الاطلاع والتوسع ، راجع :

Abderrahmane Hadj Salah, la notion de syllabe et la théorie cénético-impulsionnelle des phonéticiens arabe, Al-lissaniyyat, vol 1 n° 1, 1971, p. 63.

8 – ترتبط اللفظة الفرنسية syllabe والإنجليزية syllable والألمانية silbe بالأصل اللاتيني syllaba ، الذي يعود إلى اللفظ اليوناني sullabe ، الذي يعني الضم والجمع والاحتواء والأخذ جملة دون تجزئة .

9 – عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا– تونس ، 1981 ، ص 260 .

10 – المرجع نفسه ، ص 261 .

11 – المرجع نفسه ، ص 262 .

12 – المرجع نفسه ، ص 262 .

13 – المرجع نفسه ، ص 262 وما بعدها .

14 – جان كانتينو ، دروس في علم أصوات العربية ، ص 191 – 192 .

15– يقابل مصطلح صامت عند القدامى الحرف ، والصائت القصير الحركة القصيرة ، والصائت الطويل الحركة الطويلة .

16 – سورة الرحمن ، الآية 64 .

17 – انظر محمد الأنطاكي ، الوجيز في فقه اللغة ، منشورات دار الشرق ، بيروت ، ط 3، د.ت ، ص 258 .

18 – المرجع نفسه ، ص 260 – 261 .

19 – سورة البقرة ، الآية 137 .

20 – سورة هود ، الآية 28 .

21 – إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 6 ، 1981 ، ص 162 .